

(9) منهجية التجانس مع عصر التخصص

غالبًا ما تنطلق رؤى الفقه الدعوى من خبر يستفز الأعماق فيقود الداعية إلى التفكير الملى، فيراجع حساباته، فيكتشف مصادر خير قريبة قد ذهل عنها.

وقد شدنى وأنا أطلع حياة المسلمين الأولى: أن الصحابة زمن عثمان رضي الله عنه جميعًا، رشحوا سعيد بن العاص رضي الله عنه لضبط عربية القرآن عند تدوينه، بينما هو صحابي صغير، مما يدل على أن أمر المسلمين منذ القديم كان يقوم على وجود أهل الخبرة والاختصاص، والرجوع إليهم فيما اختصوا فيه.

كانوا جميعًا عربًا فصحاء، لكن برز من بينهم سعيد بن العاص الأموى كخير لغوى.

ففى فتح البارى نقلاً عن أبى داود أن عثمان رضي الله عنه سأل: من أكتبُ الناس؟ **قالوا:** كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت. **قال:** فأى الناس أعرب؟ **وفى رواية:** أفصح؟ **قالوا:** سعيد بن العاص. **قال عثمان:** فليمل سعيد وليكتب زيد. ومن طريق سعيد بن عبد العزيز أن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص بن أمية، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن حجر:

«وقد أدرك سعيد بن العاص هذا من حياة النبى صلى الله عليه وسلم تسع سنين. قال ابن سعد: وعدوه لذلك فى الصحابة، وحديثه عن عثمان وعائشة فى صحيح مسلم، واستعمله عثمان على الكوفة ومعاوية على المدينة، وكان من أجواد قريش وحلبائها، وكان معاوية يقول: لكل قوم كريم وكريمنا سعيد».

ويتضح أمر سعيد أكثر حين تفهم ما يعنيه مولده المتأخر، فهو صحابى صغير، وكان كبار الصحابة مازالوا يوم تدوين المصحف أحياء، ومع ذلك قدم عثمان رضي الله عنه قوله لعلمه الواسع بلغة العرب.

قدرنا : أن نصلح الحياة في زمن معقد

ومثل هذا الخبر كان كافياً لتحفيزي إلى إعادة مراجعة قضية التخصص في الأداء الدعوى، فأطلت التأمل، فخرجت بقناعة أن ما مضى من تسويق قد تجاوز حد الكفاية والإشباع بكل المعايير، وأن كل أعذار التأخير قد روعيت، وأنه لا بد من تكثيف الدور التخصصي في المرحلة الحاضرة من مراحل الأداء الدعوى في العالم أجمع، عبر التدريب في مؤسسات المجتمع والدولة معاً، إضافة إلى مؤسساتنا، وعبر الإعلان عن النفس والمخالطة العامة.

أنا لا أعيب خطط الدعوة، ولا أتهمها، وأنا برىء من شباب ينشغلون بلوم الجيل الماضي الذي بذل ووفى وصدق وربى ومنح الهبات وسنّ سنن المعروف وكشف الدرب وأدى الأمانة.

أنا الوفي لمن ربّاني، والصديق المحترم لأقراني، والمملوء أملاً بجيل الصحة الجديد الصاعد، ولا أتهم أحداً، ولا أنا بناكر للجميل.

كل الذى أقوله: إن الخطط الدعوية الماضية قد أدت الذى عليها، واجتازت بالدعاة المراحل، ونجحت في تحقيق أهدافها، من نشر أفقى للدعوة، وتدوين للفكر الإسلامى الحديث، وتربية إيمانية أخلاقية لجيل واسع، وإرساء لثوابت الدعوة، وتجديد اللهم، وعناية بقضايا الأمة ونكباتها، وإحياء لروح الجهاد ونشر وعى سياسى، وبعث الثقة ومحو الإحباط، ونجيدات خيرية على امتداد الساحة، وتأسيس مدارس ومساجد وميتم، ومحاربة جهل، وإماتة بدع، وترويج سنن، وحفظ موضع قدم لرجال الإسلام في عرصات المنافسة.

أقول: ثم الدعوة الإسلامية الآن في مرحلة جديدة، مرحلة قيادة الناس قيادة عريضة، ولذلك أنادى بخطة جديدة، وتطوير، ورفع طبقة أخرى من البناء فوق طوابق السلف.

وعنوان هذا التطوير: الممارسة التخصصية في ميادين الحياة جميعها، من علوم وآداب وإعلام وفنون واقتصاد وسياسة.

نعم أريد أن أفهم إخوانى دعاة الإسلام صناعة الحياة، بعد أن اكتشفت أنهم مازالوا لا يفهمونها، ولأظنهم على ذلك أطراً، وأحصرهم في زاوية حتى يعلنوها توبة مكفرة لذنوب الارتجال والتبسيط غير مشوبة بزهد متكلف أو تواضع ينحيم جانباً ويفسح المجال لصولات أعدائهم واسعا.

لسنا أول اثنين إذ تكتشف معي أيها الأخ أن الإسلام بسيط، وأن الإيمان قريب من طالبه، وأن الزهد يمدك بشعور من العزة تتكبر به على جميع أنماط الحياة الجاهلية ومخادعاتها ومتاع الدنيا الزائل.

قد أرشدني ابن المسيب قبلك، ثم الثوري، ثم ابن حنبل، وعلموني بساطة الإسلام وسهاحة الإيمان، فأنا من بعدهم مؤمن بأن هذا الدين القيم إنما هو دين الفطرة، ومن لاذ بالعفاف فقد اكتفى، وهو سيد الزمان والمكان، وفوق جميع عبيد الشهوات.

لكن هذا المؤمن هو المؤمن الفرد الذي تمنحه قوة الإيمان عصمة من الذوبان في المحيط الجاهلي، فيعيش مستعلياً مستقلاً ثابتاً راسخاً، لا يأبه لمغريات أو محن.

إنما أنا أريد مؤمناً آخر، هو أخو هذا المؤمن في مناقبه هذه، لكنه المسيطر على زمام الحياة، يقودها، ويعلم الناس من مركز السلطة ومنبع القوة علم الإيمان، وهذه الحياة هي المعقدة، ولذلك كانت خطته لاعتلائها معقدة غير بسيطة ولا مرتجلة ولا سطحية، وليس الإيمان هو المعقد.

مع الناس ... في جلبلة أسواقهم نترى

الشرط الضروري لولادة هذه التخصصات تهيئة البيئة الملائمة، وهذه البيئة تتمثل في ممارسة عملية لهذا التخصص في المحيط العام وليس في المحيط الدعوى الخاص، إذ هناك السعة والمكان الرحب والعلاقات الكثيفة مع جميع الناس وكل التوجهات، بما تتيح من دوافع تنافسية وتحديات متواصلة تضع الداعية في هيئة التحفز الدائم والمحاولة المستمرة.

وهذا يعني لزوم الخروج إلى حالة العلانية، أي أن يعلن الداعية عن نفسه كمسلم ملتزم، وأن يجهر بأرائه في قضايا المجال الذي تخصص فيه وفي غيرها، إن أجاد ذلك أيضاً، ولا يلزم أن يذكر صفته كعضو في جماعة، لكن تخمينات المتعاملين معه قد تقترب بهم من كشف هويته، ولا أجد حرجاً في ذلك، وأرى أن يتقبل هذه الاحتمالات لوفور المصالح، بل حتى المخابرات الحكومية قد تكتشف معدنه، ولا أجد حرجاً ثانياً في ذلك، إذ غاية ما سيكون منها أن تمنعه من تولي الوظائف العامة ذات التأثير، وفي الوزارات السيادية بخاصة، وقد ذهب عهد المحن الطويلة والسجون الرهيبة، وساعدت التطورات المدنية ومظاهر الديمقراطية على

هذا الذهاب، وما ثم إلا نحن محدودة ندفعها ثمنًا لنشاطنا وممارستنا التخصصية، أو مضايقات في بلاد قليلة نستثنىها من تخطيطنا التطوري، هذا إن لزم الأمر، وقد أصبح الإرهاب الحكومي سلاحًا ذا حدين، لأن حرمان الداعية من حقوقه السياسية والمدنية سيوجد حالة مستمرة من التوتر الاجتماعي والسياسي يستثمر في المآل لصالح الدعوة وتكون الحكومة هي الخاسرة، بما مهدت من أسباب تغييرها، وكم من حاكم كان ضحية خطط خاطئة مارستها مخبراته عن ضيق نظر واتباع لأساليب بالية من الكبت تجاوزها الزمن، والامتزاج العالمي المتزايد، والإعلام العالمي الذي دخل كل بيت، وعدوى الحرية، ودعوات حفظ حقوق الإنسان، كلها عوامل تعمل لصالحنا كدعاة وليس لصالح الحكومات.

وانطلاقًا من هذه الحقائق، أو على الأقل: عبر هذا التحليل الذي أنا به مقتنع: أصبحت أمحل عقيدة راسخة بأن أطوار العمل السري المتكتم قد استحالت ضررًا بعد أن كانت ضرورة، وأن المرحلة التي فرضتها قد ولت وانتهت، وأنا نعيش مرحلة جديدة يليق لها الإعلان عن النفس، والعمل الصريح، وكشف العناصر، ورفع الحواجز.

أنا الآن حين أدقق حساباتنا الماضية وأراجع أحوالنا: أرى أن السرية قد ولدت فينا الانكفاء عن النفس، والعزلة عن الناس، والرضا بالعيش في مجتمع صغير جدًا صنعناه لأنفسنا، والوحشة من مخالطة المجتمع الكبير الواسع الذي يحتوى مجارى الحياة العديدة، وبسبب طول مدة هذا الانكفاء الذي استساغته نفوسنا والسجن الاختياري الذي لجأنا إليه قتلت فينا قابلية الإبداع وضمرت الروح الاجتهادية وتقلصت النزعة القيادية، ولا ينمو تخصص بدون هذه اللوازم، وبذلك أصبحنا نرى الداعية يراوح في مكانه سنوات طويلة بلا تطور في علومه وخبراته وشخصيته، ويفضل العيش في الظل والمؤخرة.

يجب وضع حد لهذا النمط الخاطيء من التعامل مع الحياة وحركتها.

يلزمنا اقتحام لمجتمعات الناس، وأن نرشح أنفسنا لقيادتهم، أو على الأقل كمرحلة أولى: أن نقرب منهم لنستفيد من قابلياتهم وعلومهم وأموالهم وإسالتها إلى وادى الإسلام، ومثل هذه المهمة تقتضى أن نتجاوز وجودنا في جمعية إسلامية، ومجلة إسلامية، ومدرسة إسلامية، وشركة إسلامية، وجامعات إسلامية، وفي باقى سلسلة المؤسسات الإسلامية التي حصرنا أنفسنا فيها.

وجود هذه السلسلة مهم جدًا ولا أنكر ذلك، لأنها تمثل الوجود الإسلامى المستقل، وتشخص كمثال على ما نريد، وهى التى تضمن عدم ذوبان الدعوة فى المحيط، وإليها يفىء الدعاة عند التعب وهبوط الإيمان، فتتجدد العزائم وتتقى الدماء.

لكن لا نحصر أنفسنا فى حدود هذه المؤسسات الإسلامية، بل نوزع عناصرتنا ليكونوا أعضاء فى الجمعيات الأخرى والنوادرى والنقابات، ومحررين فى الصحف الأخرى، ومدرسين فى الجامعات العلمانية، وفى المدارس الخاصة التى ينشئها غيرنا، وأن نشارك فى التجارات من ليس داعية من أجل أن نكون أعضاء فى مجالس إدارات الشركات التى يكون لبعضنا فيها حصة، وأن يعمل بعضنا فى البنوك الربوية من أجل حيازة خبرتها والتدخل فى صرف بعض أموالها بما يسهل تجارات الدعاة، وثم أن نرسل بعضًا آخر للدخول فى الأحزاب الحكومية والأحزاب غير الإلحادية من أجل وصولهم بعد سنوات إلى مراكز قيادية فى هذه الأحزاب وتوجيهها لصالح الإسلام وبما يقلل الشر ويزيد الخير.

ولى من الناحية الشرعية إفتاء بتجوز هذه المخالطة الربوية والحزبية للداعية المسلم إذا أتاها بنية الإصلاح ومن خلال خطة جماعية وليس لتحصيل منافع شخصية، وقد تابعت فى هذا الإفتاء بالحل غيرى، وليس هذا هو موطن التفصيل الفقهى فى هذا الباب، وإنما شرحتة فى كتابى «أصول الاجتهاد فى فقه الدعوة».

ويستغرب بعض الدعاة من مثل هذا الكلام، ويرون أن التأثير الإسلامى الذى يبتغيه الدعاة الذين يعملون ضمن مؤسسات غير إسلامية سيكون ضئيلًا محدودًا. ولذلك هم فى شك من صواب هذا التخطيط.

وظاهر الأمر يمنحهم تأييدًا لظنونهم، إذ إن الانطلاق الإيمانى المستقل أقرب إلى التأثير فى المقابل، والهوية الواضحة تساعد على تفهيم القول وعلى ربط السامع بالقائل، وعلى أنواع من الامتزاج المعنوى والاسترواح النفسى، وهذه فوائد عظيمة ينبغى أن لا يغفل عنها أى داعية حين يمارس مهمته، وأنا للوضوح مؤيد، وللاستقلال أدعو، بل كان مبتدأ كلامى هو وجوب الإعلان الصريح عن أنفسنا، وبدرت منى حماسة نحو ذلك حدث بالبعض أن ينصحنى بالإبطاء وبترجيح الحقائق الواقعية على المثاليات العائمة، وأنا اعترف بأن هذا النوع من

الحماسة وسرعة الاعتناق للخواطر البراقة هو نقطة ضعف رئيسة في تكويني، ولكنني مع ذلك أرى أن في كثافة انتماء عناصرنا إلى المؤسسات غير الإسلامية فوائد باطنة عديدة تزيد على ما في ظاهر الأمر من مصلحة التأثير، ذلك أن السعي الدعوى لا يقتصر على محاولة قذف أفكارنا وآرائنا في عقول وقلوب أناس جدد نحاول تحصيل استجاباتهم لنا، لتوسيع قاعدتنا وعدد عناصرنا، وإنما يتعدى هذا السعي الدعوى ذلك إلى أهداف أخرى كلها تصب في النهاية في صالح الدعوة.

*** منها:** تنمية بقايا الخير لدى رجال المؤسسات الأخرى وفي أنظمتها وخططها وأهدافها، فإن الناس لم تعلق على سوء، وإنما هو تخليط، فهناك صواب يمازج الأخطاء، وساعات إفافة أثناء أيام السكر، وبقايا فطرة وإنصاف، ومن الممكن للداعية أن يستثمر هذه الإيجابيات من بين ركاز السلبات، وتحصيل المردود من هذه العملية بطيء، لكنه يتعاضد تدريجياً ليكون عاملاً مساعداً للعمل الدعوى.

*** ومنها:** عملية معاكسة في كبت الشر من خلال هذه المخالطة، والتخذيل لأهل السوء عن تنفيذ ما يرومون فعله، وحصصهم في زوايا ضيقة بحسب الاستطاعة، وتأليب الأخبار ضدّهم، وتبدأ سلسلة هذا الكبت بمواعظ للأشرار، وزجر، وتخويف من الله، وتنتهي بقرارات مانعة تستصدرها مجالس الإدارات، وبين هذين الحدين الأولى والنهائي أنواع من الأعمال الكابطة والجدل بالتى هي أحسن، والتسويق والفضح في فنون عديدة.

*** ومنها:** توجيه مجموعة الحقوق الدستورية والقانونية والإدارية والمالية التى تتمتع بها هذه المؤسسات بما يلتقى مع الهدف الدعوى في الإصلاح الاجتماعى أو التاصيل الثقافى أو التقنين الشرعى أو اتخاذ موقف تجاه قضايا الأمة الكبيرة أو نجدة الأماكن المنكوبة، وما لا تستفيد منه الدعوة في نفس البلد قد تستفيد منه الدعوة في بلد آخر، أى تقوم بتصدير هذه الإيجابيات، وبالمقابل قد نستورد إيجابيات مؤسسات أخرى في غير بلدنا.

هذا إضافة إلى أن هذه المتتديات تتيح للداعية أن يحاور وينشر فكره وأن ينمى شخصيته العملية، ويكتسب الخبرات الدقيقة منها، عبر العمل لها أو اقتباساً من رجالها المجربين، مع ما قد يقترن بهذا الانتشار وما يتيح من مخالطة من اكتشاف أسرار، ورصد فرص، ونجاح في

شفاعات، والتمتع بغطاء أمني، وتحرك رسمي، وبروز إعلامي، وجمع أموال، وتحصيل امتيازات، وترويج تجارات، وأنواع لا حصر لها من المنافع.

وغاية هذا الإسهاب: تنبيه الدعاة إلى أن العمل الدعوى أوسع من أن نحصره في تجميع عناصر جديدة وضمها إلى صفوف الدعوة؛ إذ هو قائمة طويلة من أنواع كثيرة من أشكال النشاط والمصالح والاحتياجات الوقائية، وأن الوصول إلى الأهداف الإسلامية لا يمكن عبر جهود الدعاة فقط، وإنما تحقيقه أيضا إضافات الأصدقاء والحلفاء والمتعاونين، بل ويعيننا أيضا: نجاحنا في تحييد آخرين، وما هذه إلا عبارات موجزة تصلح كعناوين فقط لفن عريض من الأساليب والمداخل والمخارج والمناورات والالتفاتات والتحالفات والعزل والحصر، وينتظم كل ذلك تنسيق وتكامل في الأدوار.

ويتخوف دعاة آخرون من ذوبان عناصرنا العاملة في المؤسسات غير الإسلامية، ومن ضعف روحى وعبادى يعترها بسبب تأثير المحيط، قد يؤثر في النهاية على مدى الولاء.

وهذا اعتراض جيد، والذوبان مرئى، لكننا لا نصف هذه الخطط لدعوات ناشئة جديدة لازالت تجبو ضمن مرحلة التأسيس الأولى، مما يليق لها عزل عناصرها عن المحيط كلياً أو جزئياً لتلقينهم ثواب الدعوة وفكرها، ولتزكية قلوبهم وتدريبهم على التخلص بمكارم الأخلاق، وإنما نحن نخاطب دعوة تقدم عمرها وطال، نريد أن ننتشلها من ترهل يغزوها، وبطالة قد تتفشى فيها، وورم تكاثرى لا يوازيه تطوير نوعى، وجهود على أساليب عتيقة تجاوزها الزمن، وتحلف عن استفادة من تقدم علمى عالمى مازال يقفز كل سنة إلى مستوى عال جديد عبر اختراع طريف.

إن من يتساقط بسبب الترهل والتبطل أكثر عددا ممن يضعف بسبب المخالطة، ومن يهجر الصفوف اعتراضاً على رجعية الأساليب أكثر من ذلك.

لكننا مع ذلك لا نسلم تماماً بمنطق الذوبان هذا، لأن الذى نريده ليس هو إرسال هؤلاء الدعاة إلى قطاعات المجتمع الفسيح فى انتشار واسع دونما تمهيد ووقاية وإدامة ورقابة، وإنما هى خطة متكاملة، تبدأ بتربية نفسية، وشحنات معنوية، وتمر بتوعية وتفقيه وتدريب، وبأوبات شهرية إلى الثبات الدعوية للترود وتجديد الهم وغسل القلوب، وبإمداد المنتشرين

بشريط اتصال عبر الإنترنت، ثم شد هذه العناصر الدائبة في مساراتها ومداراتها البعيدة عن المركز إلى قيادات دعوية ظاهرة معلنة تتحدث لها ومعها، فيكون هناك تبادل روحي يرمم التلف ويرطب الجفاف، ووجود هذه الزعامات الدعوية العلنية شرط أساس لنجاح هذا التخطيط.

ذهب زمن البدائية

لكن لا بد أن يتطور الدعاة مدنيًا ويواكبوا الأسباب التكنولوجية المتجددة السريعة التطور إذا أرادوا أن ينجحوا في خطة المخالطة الاجتماعية هذه.

لقد نقل العلم الحديث الدعوة الإسلامية إلى موقف ذي حدين. تنظر الواجب المتعين على الدعاة في تطوير أساليبهم وأدواتهم فتستكبره حتى لتظن ذلك معضلة، ثم تنظر في عين الوقت المتاح والفوائد التي يمكن أن نجنحها من ذلك فترى جانبًا إيجابيًا يغريك بتطوير عناصرك وأدواتك بما يوافق آخر المخترعات.

إلا أن الداعية اليقظ لا يحل له أن يبقى حائرًا مترددًا بين شعور الإعضال وبسمة التفاؤل إزاء هذا المفترق، وإنما عليه أن يحسم الأمر سريعًا، وأن يقبل التحدي ويشرع في التحديث ومواكبة الاكتشافات التي أصبحت تتوسع من موسم إلى موسم.

وأهم ما في هذا المجال: استخدام الكمبيوتر، ليس كألة وبرامج حسابية وإدارية فحسب، فإن هذا المقدار قد تجاوزه الناس، كل الناس، حتى أن مكتبًا تجاريًا في غابات أفريقيا، ليصدر مراسلاته ويدير شؤونه بواسطة الكمبيوتر، ولكن أن نستخدم ثورة المعلومات والإنترنت ومزايا التحاور المباشر عبر الشبكات والبريد، إلى درجة إعلام أصحابك ومن تريد مواصلة تفاهمك معهم بخلجات صدرك وخواطرك اليومية عن طريق مكانك في الإنترنت، وبأحاسيسك وتذكيراتك وتقارير عن آخر الأحداث فيما حولك وتحليلك لأخبار تهمك وتهمهم.

نقطة التعقيد هنا: أنك إن لم تتطور فإن الضرر لا يقتصر على أنك تخلت عن تسهيلات عديدة الأنواع فحسب، وإنما ستفقد الجيل الجديد الصاعد الذي أصبح يتربى في المدرسة وعبر مخالطته أفرادهم بعضهم لبعض على هذا النمط من الحياة الإلكترونية، فإن لم تكن

أساليبك ومحادثتك له ومواعظك الإلكترونية فإنه سوف يعرض عنك ويكون بطيئاً في الامتثال لك، وسيؤثر فيه غيرك، وما يدريك ما هذا الغير، واحتمال أن يكون يهودياً أو كافراً أو ماجناً أو مخرباً أو مروجاً لعقده النفسية، مخالفاً للفطرة منتقماً من جميع الحياة الإنسانية.

إن لم تتحدث مع الجيل الإسلامى الصاعد بنفس اللغة العصرية التى يستخدمها فسيقاطعك وينشغل عنك.

قل ما تشاء من أن الحياة الإيمانية تتطلب البسطة والسكون وهدوء المسجد، وأنا معك، وأنت الصادق، لكن ما الحل وقد أصبح العالم قرية واحدة، ولساناً واحداً، وقنوات متشابهة؟ وما الحل والوجه رانية إلى الشاشات منذ أيام طفولتها المبكرة؟ أقسم بالله إن التطور واجب يا من لا تقنع إلا بقسم.

أما من أين تأتى بالمال، فهذه ليست مشكلتى، إنما هى مشكلتك إذ فرطت فى تكوين طبقة رجال الأعمال الدعاة وعليك حلها، وطريق ذلك التوبة.

امتيازنا النوعى يرشحنا لقيادة الناس

بل الأمر أبعد من هذا، فإننا إن تخصصنا بالمقدار الذى نوازى به الناس ما نكاد أن نثق بأننا فعلاً شىء كبير، إذ غاية ما هنالك أننا سنكون لهم أقراناً ونساويهم، ونكون قد اجتزنا نقطة التخلف، لكننا نريد قيادة الناس، ولن تكون قيادة الناس إلا بالامتياز والتفوق التخصصى الكمى والنوعى.

لذلك أختى الداعية: أريد لك التميز، وأنتظر منك الإبداع، وأن تترك بصماتك الواضحة إذ أنت سائر.

قل لى: ماذا تعنى كلمة تسمعهما عن رسائل كتبها غاندى، حين يقول باحث: إنها رسائل كتبت بلغة راقية!!

أنا الآن لا أدعوك إلى نظر مكانته القيادية وزعامته لقومه وثقافته، وإنما أدعوك فقط إلى رؤية ما عضد ذلك من لغة إنجليزية فوق المستوى العادى، وانظر ماذا يعنى ذلك، ولم لا يكون بعض الدعاة مثله مع ما أتيح لهم من سكنى فى الغرب طويلاً.

وأنا أستطيع أن أضرب لك ألف مثال آخر لرجال تميزوا بفصاحة، أو بعلم، أو باختراع، أو بنظرية ابتدعوها ورموز أضافوها إلى المفاهيم الإنسانية، ثم لرجال صبروا على لأواء، ولعصاميين شقوا طريقهم بأظافرهم، بل مثل هؤلاء أوف في كل أمة، وهم عشرات ألوف على امتداد الأرض، وملايين إذا ضرب في التاريخ النظر وأبصر النبلاء على تعاقب الأجيال، لكنني أحب الآن تجاوز هذا النمط الإحصائي إلى الأصل الإنتاجي لهؤلاء، أي إلى قراءة شمولية لظاهرة «تنوع المؤثرات الحيوية»، وانفتاحها أمام كل البشر، وبالتالي: انفتاحها أمام دعاة الإسلام أيضاً، كنتيجة حتمية، إلا قليلاً مما يمنعه حاكم ظالم، أو ظرف استثنائي.

انظر صنعة الفكر المحض كمثل، والتي لا يستطيع أعتى الظلمة تعميم لمعاتها: كم أنتجت من فلسفات، وتأملات رمزية، ومراقبات اجتماعية، وفهم لمسار التاريخ والتبدلات الحضارية.

وانظر عشق الحرية كمثل آخر: كم ساق قلوبا إلى البذل، وأفواهاً إلى نطق بحكمة سائرة وشعر محرّك، وكم قاد جموعاً إلى موقف ثورى رافض وعناد مستعل، وتقدم جرىء.

ومعاني القلب الرقيق: من زهد، وقناعة، وحلم، ورحمة، وسماحة ومثاليات، ونهضات من الجدل، ونبرات من الصدق: كم فتحت من مغاليق وربطت من أفئدة، ووحدت بين نفوس، وجمعت أتباعاً، ونظمت أشكالا، واستفرغت وسع أولى قوة أو ذكاء ليخدموا قضية معينة!

وانطباعات الأحداث في داخلات الأنفس، وردود الفعل لهزة عنيفة أو لمسة خفيفة: كم رفعت رءوس المصورين نحو أعلى، فاستحال الانطباع إلى رمز فحرك الأصابع بضربات ذات ألوان فإذا الناس أمام لوحة ناطقة، والفنان صامت! أو حركت الألسن بأبيات ذات أوزان، فرجعتها أصوات بألحان، فرجع الوجل جريئاً!

وجفلات أصحاب الفطر النقية من ترديات بشر مثلهم سكرت أبصارهم فانتكست عقولهم، فعبدوا أصناماً وذهلوا عن شواهد تدل على الخالق الواحد، فطفق المؤمنون يؤذنون، ويحتازون المفاوز، والغابات، والثلوج، والبحار، والجبال، مبشرين ومنذرين، فحولوا شعوباً عن وثنية أركستها، أو تركوا في كل قوم من أنفسهم شهوداً على سخافة الشرك، حتى إنى رأيت في متحف فنوم بنه عاصمة كمبوديا شاهد قبر عتيق تعلوه البسملة لمسلم قديم يتوسط أصنام بوذا، يشهد بطلانها.

ودلالات الوثائق المتراكمة، والإحصاءات المتعاقبة كم استلها من باحث، فنثرا بين يديه وطفق يقارن، ويركب ويجمع الشظية إلى أصلها، ويربط اللاحق بسابق، ويعطف الجوانب على مركز، ويظل يكرر ذلك بلا مل، فتتوضح له رؤية مستقبلية عبر الأوصاف الواقعية، فيشير على رؤسائه بخطة، فيسبقون إلى احتلال الغد، إذ المرتجل يدور في المتاهة!

ومناقلات المال بين الأيادي، التي تمكن أناسًا، وتحجب آخرين، كم راقبها من لامح يفهم سر القوة، فصمم على أن يكون ثريًا، يبيع المادة، ليشتري الأرواح، ويأسر، ويطوق، ويحاصر، ويغري، ويقرب، ويُسكت، وينطق، ويجمع حصاد العقول، وخفايا الزوايا، فيستوى مسيطرا، وما في يده سلاح، بل تلعب أصابعه بمفتاح!

وكانت خالتي أم عبد الله - رحمها الله - تغسل ملابس العائلة في قديم الزمان بيدها، قبل أن توجد مكائن الغسيل، حتى تفتطرت كفوفها من أثر المواد الكاوية التي في الصابون تلك الأيام، فشكت إلى ظريف من الأقارب فقير مخشوشن يقال له: «هديب»، ففحص كفها فتأوه طويلاً، وأظهر الحشرات، وبعث الزفرات، ثم قال ملاطفًا: كفك يحتاج إلى دهن الفلوس ليبراً.

فأخذت المسكينة كلامه مأخذ الجد، وذهبت إلى سوق «الشورجة» الشهير ببغداد تسأل العطارين عن دهن الفلوس، فنفى عدد منهم علمهم بمثل هذا الدهن.

قالت لنا: حتى أتيت العاشر، فقال لي: يا خالة، لأي مرض وصفوه لك؟ فأرته كفها المتشققة، وشكت له الألم، فضحك، ونصحها بالرجوع إلى بيتها، ونبهها إلى فكاها انطلت عليها، وأن «هديباً» إنما أرشدها إلى معالجة فقرها بالمال.

وفي معترك الحياة اليوم، إذ تتقدم دعوة الإسلام في طريقها فقيرة مسكينة بلا درهم ولا دينار، فلا تكاد تصل، مع أنها تمتلك الرجال والعلوم: لن تنفعها غير وصفة «هديب» الحكيم.

إنه دهن الفلوس ... وكفى.

نعم ... إنها الكفوف في الكفوف، وتشهد الملائكة وفاء العهود، لكنها الكفوف المتشققة الخلية، والأساليب البالية، وشم تكبير يزاحمه تأوه، وتفكير ينقصه تفوه، وأولى للدعوة أن تلجأ إلى حكمة الظرفاء، تفسر بها زهد فضيل وجنيد.

ولست أزعّم أن ليس في الدعاة رجال يتقنون هذه الأنواع من المؤثرات الحيوية العديدة، بل نحن نفخر أن فينا أهل فكر، ومن بذل دمه القاني طلباً للحرية، وفينا زاهد وشاعر وفنان، ووعاظ، وتجار، وباحثون، ولكنى أريد منهجا تربوياً شاملاً لتخريج أفواج من مثل هؤلاء ليتواجدوا بكثافة كافية للتأثير في مجرى الحياة وإدارة التنافس السلمى العلمى الأدبى الفنى الثقافى.

أنا أزعّم أن هذا المنطلق التخصصى هو الركن الأساسى اليوم فى محاولة الاستدراك، والتي يجب أن تكون ذات بعد حضارى شمولى يتجاوز الوسائل القصيرة، والاهتمامات السطحية، وتسهيلات المستعجلين فى تصوراتهم الساذجة للأمور، وظنونهم الطفولية بأن امتلاك زمام الحياة تتكفل به رصاصة بلهاء يطلقها الذين لا يفهمون حركة الحياة، وأبعاد التنافس وأوصاف الفطر، وآفاق الحضارة.

وهذا النمط من التبسيط هو المسئول عن طاقات مازالت تهدر، وأحزان أتلقت النفوس، وتهورات ألبت الخصم، وأجفلت الصديق، وخذلت الحليف، وأسكتت الوسيط. أمورنا أبعد من ذلك أيها الإخوة، لأن حقائق الحياة أبعد.

القيادة الحانية ترعى الهمم الرانية

ومن بلوغنا فى التأمل والتحليل مبلغاً أبعد: ندرك أن هذه الصفات للتعامل مع تعقيد الحياة المرتبطة بقضية التخصص ثم بمنهج الإبداع ارتباطاً وثيقاً: لها ارتباط آخر قوى بالقضية القيادية، ومعضلة تحديد مفهومها وآفاق عملها ومعادنها ونمط أدائها، لأن المتخصص محتاج إلى أن ترعاه قيادة واعية، وتتفهم دوره، وتدفعه إلى الأمام دوماً، وتؤمن بالذى يؤمن به من قناعات وأساليب، ثم المتخصص من باب آخر يحتاج أن نسهم له سهماً فى العملية القيادية الجماعية، بحيث نسند إليه شيئاً من المسؤولية، لتكون معاناته معاناة حقيقية عميقة، هى معاناة المؤمن المحمل بالحمل الثقيل الذى يجب أن يسلمه كأمانة إلى مكان آخر أو مؤمن لاحق آخر، فيمشى يريزح تحت الثقل، ويشعر بالوطة، ويخطو بجهد، ولا يكون مجرد الناظر إلى ساحة المعاناة يتعرف أخبارها من دون أن يذوقها.

لذلك فإن بداية مشروع التخصص الدعوى الكبير تبدأ بتصحيح مفهومنا عن القيادة،

وأن نتجاوز به مجرد الإداريات، ثم في إتاحة عقلية قيادية عريضة واسعة تنهى الأطوار الفردية وما قاربها.

بعض القادة يقلص المعنى القيادي الواسع الرفيع تقليصًا يحيل به نفسه إلى مثل مدير يحاسب موظفيه ويضبطهم بقوة القانون ورهبة السلطة، في نمط جاف من التعامل بالظواهر وتحصيل الانقياد القسرى أو المصلحي.

وليست القيادة كذلك، كل القيادة في جميع نواحي الحياة، وبخاصة القيادة الدعوية.

القيادة الدعوية نمط من الأداء العاطفي قبل أن تكون أى شيء آخر، والقائد المسلم يتعامل مع القلوب، لا الجوارح، يمدّها بمعانى الإيمان، ويقوى فيها جوانبها الإيجابية، ويدارى السلب إلى أن يقلعه، ثم هو يتعامل مع العقول، يطرح لها الفكرة الطارفة، ويسبق إلى تحليل مجموعة الأحداث المؤثرة في الموقف الدعوى، فيقترح مدخل صدق.

القيادى يبذر في قلوب أصحابه رغبة التقدم إلى الأمام، وفعل شيء من لا شيء، والتجاوز اليومى للنقطة التى وضعها فيها الأمس، وهذا يتطلب روح التحدى والتحرك الهاجم والاندفاع المتواصل واستثمار الفوز الأول نحو فوز ثان.

والبعض يحسب هذه التعبيرات من إنشاء الأقلام وتفنن اللسان، لأنه يستصعب هذا الشكل المقتضى لليقظة الدائمة والمبادأة المستمرة.

وعلى نقصه يقيس هذا المستصعب، لأن الإيمان والمواهب الربانية الرحمانية قريبة، موجودة، مرئية، حالة في عالم الواقع، لكنها مغلفة بغلاف يقتضى فكها، لأنها هدية، وكذلك الهدايا تصان.

الأمر - كما علمتنا التجارب وسياق الحياة - متعلق بتوزيع قدرى ترك الله الناس عليه، إذ وزع بينهم الأخلاق مثل توزيع الأرزاق، وجعلهم مراتب في الهمم والدأب والصبر والشجاعة، وبعضهم فوق بعض في الثقة بالنفس والعزائم والحساسية وردود الفعل والمنافسة والتحدى، والنوايا متفاوتة، والذكاء مختلف.

والدعاة هم من جملة هؤلاء الناس، فيهم وفيهم، وأقدارهم شتى، رغم أن نسبهم في الإيمان واحد.

وهنا يكون اعتراضنا على من يستصعب ويقول: كيف أضمن أن يكون القيادي مؤجج العاطفة حاد العقل؟

هنا يسوغ لنا أن نسأل: لماذا لا يتاح المجال لأصحاب الصفات العالية أن يتصدروا؟ ولماذا لا أدع الذكي المبتكر المتفائل المستبشر يقود، فتسرى عدواه الخيرية إلى أتباعه، فإذا هم في اهتمام وتطلع وانجذاب نحو المعالي؟ إن القيادة تبدأ من هاهنا، أى قيادة، إسلامية أم جاهلية، فإن انتزاع الألعى الجسور ووضعه في المقدمة أو وضعه هو لنفسه في المقدمة، وتصديه وترشيحه لنفسه، هو بداية القصة، وما بعدها فصول تابعة، وليست القيادة الإسلامية شيئاً مغايراً، سوى أنها تختار هذا الألعى مسلماً له شعبة واحدة من الإيثار اسمها: الإخلاص وصدق التوجه وصفاء النية. كل ما بعد هذا الإيثار الأولى المحدود يمكن اصطناعه وإيجاده والتربية عليه، إما من خلال تربية منهجية هادفة، أو من خلال المعاناة والتجريب والتفاعل الذاتى، أو من انعكاسات المحيط.

فالإيثار له شعب كثيرة يمكن أن تنمو إذا توفرت النية الصادقة، والموعظة لها دورها المؤكد، ورؤية الأسوة الحسنة تحمل الرائي على المتابعة، ونظافة المحيط تؤدي إلى عفاف وفطم، وعلى المدارج سابقون يضمنهم القدر، لهم يد ممدودة إلى خلف، يعينون اللاحق، ليتصل سند الصعود.

والعلم بالتعلم، والمطالعة، ومشاهدة العلماء، والسعى إلى حلقاتهم، وتعهد الحوار، واستقصاء الأنباء، والتدسس والتجسس، وما يحتاجه القيادي من ثقافة عامة زائدة على المقدار الشرعى أصبحت تتكفل به الصحف وبرامج التلفزيون العالمية إذا أحسن الاختيار.

ثم مرور الأيام وتقلب الأحوال ومراقبة الساحة السياسية تزيد القيادي خبرة، ويتزود منها بمعان لا تحويها الكتب ولا التلقينات، فإن كان مثلنا ساذجاً سليم الفطرة مكتفياً بمد يده إلى الأغنياء يسأل الزكاة لدعوته، وقد أكثر مدّها، وأكثر إرجاعه خائباً يتلوى، وشووا قلبه على نار الوعود، حتى تفجرت دمعته، فتاب توبة نصوحاً، وطفق يشجع الزهاد على ممارسة التجارة الحلال وحياسة نصيب من الدراهم المتداولة: فقد اكتمل له الوعي، وأصبح قيادياً حقاً.

والمقصود من هذا الاستعراض تقرير أهمية الاختيار منذ البداية، بتقديم الذكى الشجاع إذا أنسنا منه صفاء توجهه، حتى لو كان قليل العلم، قليل التعبد، ليس بعميق الخبرة، فإن الأيام والمناهج والبيئة والعدوى والمعاناة كل ذلك سيظوره ويمده بمؤهلات التخصص.

ومقتضى ذلك أن لا تعتمد اختياراتنا على وجاهات وأعمار وشهادات ومظاهر وبقايا أعراف اجتماعية خاطئة، إذ ليست هذه الصفات غير مرجحات ترجح البعض على بعض عند تقارب الذكاء وقوة الشخصية، أو هي عوامل ترجيح في الظروف الاستثنائية سداً للذريعة من ذرائع الفتن أو المحن.

إن المشكلة الكبرى التي تصادف الدعوة في كل مكان في أمر الاختيار وتصدير الصدور لا تكمن في الاختيار الداخلى داخل البناء التنظيمى لطبقات القياديين، إذ إننا في الأغلب نستطيع التحكم بذلك والوصول إلى معادلة هي في مجملها محققة لمقاصد الفقه الصحيح في التأمر واستكفاء الأمان، والخطأ موجود لكنه قليل، لكن المعضلة تظهر بصورة متكررة عند تقديمنا لعناصرنا الدعوية للمشاركة في انتخابات برلمانية أو في عضوية وزارة أو وظائف حكومية عليا، بل تظهر حتى في ترشيحنا لعناصرنا في مجالس النقابات والنوادي، بل حتى في إدارة جمعياتنا الإسلامية، إذ نضطر في هذه المجالات إلى مراعاة مفاهيم الناس وأذواقهم ومعاييرهم التي تختلف كثيراً عن موازين فقه الدعوة، وللناس تعلق بالمظاهر والأنساب، ولهم مراعاة لمصالحهم الدنيوية، ويستأسرون لصاحب اللسان والهيبة والنفوذ، ومن ثم تميل الاختيارات الدعوية إلى تقديم من سيرضى عنه الناس وإن كان غيره أرجح منه عندنا، وتكون موازيننا مغايرة لموازين التأمر الداخلى.

لأول وهلة ربما لا يجد الداعية حرجاً في ذلك، لأن الحكمة ترشحنا إلى أن نخاطب الناس على قدر عقولهم، لكن الحرج يبدأ بالبروز إذا طال أمد هذا الازدواج، بحيث تفهم الطبقة الظاهرية من الدعاة أنها أولى من طبقة القيادة التنظيمية باتخاذ القرار ورسم الخطط وتحديد المستقبل الدعوى، بل قد يبرز غلو في ذلك ينادى باحتكار هذا الحق، فتعاكس الموازين، ويصطدم مفاد التجارب العملية والفقه الدعوى ونمط التأصيل ومنهج التربية الريادية والنظر الإستراتيجى البعيد مع رغبات الاستعجال والحلول الوسط والأهداف الموسمية

وخطط التعايش الائتلافي، فتقرب الدعوة من الانقسام، أو تؤمن وحدتها بخطط توفيقية، ورجال من التوفيقين، ويتوارى التشخيص الصحيح والوعى الفصيح.

وقد يرد الضرر في صورة أخرى ملموسة في الدعوات التي تسرف في النزول إلى الطبقات الناشئة عند إجراء الانتخابات الداخلية، بحيث يكون تصويت الجدد أكثر من تصويت القدماء أهل التجربة والمعانة والدراية بما في الزوايا وبتاريخ العمل والدروس المستفادة من تعاقب المراحل، وبذلك تأتي النتائج أحياناً غاية في الغرابة، وأبعد عن منطوق الفقه، فيتصدر ضعفاء، وتراعى موازين يهدرها عرف المؤمنين.

والحل لكل هذه المشاكل والانحراف عن سواء الفقه الموروث يكمن في تكثيف «فقه الدعوة»، تأليفاً وترويضاً بحيث ننزله لإخواننا الدعاة بكثافة عن طريق التوسع في استنباط الدروس المستفادة من تاريخنا كأمة وكدعوة، وتدوين التجارب، وتمكين المجتهدين منا من «حق الاجتهاد» والتساؤل والاعتراض والنقد والتصويب والتخطئة، ووضع حد ينهي «التقليد» والجمود والحياء من كشف عيب ومناقشة معيب.

والمظنون أن «منهجية التربية الريادية» لو وضعت في التطبيق كنظرية معرف بها، تحدد الإطار العام لمفهوم الصنعة القيادية، ثم لو أردفت باقتراحات «معاً نتطور» كخطوات عملية تفصيلية لهذه المنهجية، مع اقتباس روح «صناعة الحياة» في تأكيد الدور الشخصي التخصصي في الأداء والدور الجماعي في التنسيق وجمع الجهود وتكثيفها، فإن شطراً من الاستدراك على معضلتنا القيادية يكون قد حصل وتوفر.

لكن هذا الاستدراك يحتاج إلى «مفاصل» رئيسة تقوم بدور الجمع والتوزيع، والالتقاط والربط، وتأويل التنظير في تفاصيله، وتطبيق المفردات عملياً بشكل نموذجي.

وهذه المفاصل هي «مراكز البحوث والتطوير» التي يجب أن تنتظمها خطة تكاملية على المدى العالمي، بحيث تكون تحتها قاعدة من قنوات استباقية سالكة تحقق توزيع الأدوار وتبادل الكتلة العلمية والفنية والأرشيفية بينها، مما يحققه الكمبيوتر اليوم بسهولة، ويعين عليه عمل خاص شبيه بالإنترنت، وستقوم هذه الشبكة الخاصة بمضاعفة دورها عن طريق «التطفل» على الشبكة العالمية الواسعة من المعاهد المتخصصة ومراكز البحوث، السياسية

والإستراتيجية، وامتصاص رحيقها ونقله إلى الاستعمال الإسلامى، من تحليل سياسى واقتصادى، وإحصاءات، وتقارير نادرة، ووثائق مهمة، وكل ذلك متاح بطريق قانونى رسمى لا تقف دونه حواجز مانعة، إنما المانع الوحيد هو نقص هممنا، والكسل عن التفتيش والتتبع والرصد، أو هو نقصان وعينا التخطيطى، بحيث نستكثر أن نهب بعض إخواننا إلى هذا العمل البحثى، أو نبخل بصرف على ما يلزمهم من مال، ومن يتتبع الصحف العامة يجد أن كثيرًا من أدق التفاصيل وأعتى الأسرار يكشف وينشر، ولو رجعنا إلى الصحف الصادرة فى الأيام القليلة التى سبقت معركة الكويت لوجدنا أن الخطة العسكرية التى نفذها الجيش الأمريكى وحلفاؤه كانت أحد سيناريوهات ثلاثة متوقعة ونشرت بكل التفصيل، مع الإشارة إلى رجحان السيناريو الذى نفذ فعلاً وأنه أكثرها واقعية وانسجامًا مع حقائق الموقف، ومثل ذلك حدث يوم الجمعة قبل ثلاثة أيام من التوسع الإسرائيلى عام 1967م والذى يطلق عليه فى الإعلام العربى اسم النكسة، فقد نشر اللواء محمود شيت خطاب رحمته المؤلف المعروف وأحد مشاهير القادة العسكريين فى العراق مقالاً طويلاً دلى فيه على أن قراءة الموقف ومعطيات الساحة تشير إلى «وجوب» قيام إسرائيل بعدوانها صباح اليوم الذى وقع فيه العدوان فعلاً، ودلى من خلال المنطق العسكرى على صواب رأيه، وأن إسرائيل لا تستطيع تقديم هجومها قبل ذلك، لعدم اكتمال النفير والحشد والاستعداد، ولا يمكنها تأجيل ذلك، لاحتمال فوات الفرصة، وأن تلك الساعات من صباح يوم الاثنين هى أوان الضرب الصحيح الناجح الذى يعلمه كل متمرس فى القيادة العسكرية. وبين هجمة إسرائيل ومعركة الكويت ربع قرن ملء بمئات الأحداث الكبيرة والصغيرة التى نشرت الصحف عنها قبل وقوعها أخبارًا صحيحة وتوقعات دقيقة تدع الدعاة أقرب إلى صواب الموقف وأكثر تحكماً فى ردود أفعالهم تجاهها إذا علموها، فكيف بتقارير وتحليلات تتداولها مراكز البحوث فقط وهى محجوبة عن الصحف لسبب من الأسباب؟ أو كيف بفلتات الألسن خلال الندوات والمحاورات والمحاضرات التى تعقدتها هذه المراكز وعدم إطلاع الرأى العام عليها؟

وخلاصة مذهبنا التطويرى: أن الذى لا يجىء إليك: تعال إليه، كما يقول المثل العامى، فطبقة الدعاة الذين يعترهم نوع نقص وضمور وعى ولكن قذفت بهم التخطيطات

الاضطرارية وسد الذرائع إلى مسؤوليات عامة ومواطن صدارة، هؤلاء الدعاة «نذهب إليهم»، فنغذيهم بالوعى والأخبار والتحليل والإحصاء، ونلاحقهم بمفردات تطويرية عديدة الأنواع إذ هم في أماكن أدايمهم، عن طريق نشرات وأشرطة وكمبيوتر ومبتكرات أخرى، حتى يستوى سادجهم واعياً، ومترددهم مقتحماً، ومرتلهم مخططاً، وعيهم فصيحاً، وسائبهم مرتبطاً، وظاهريهم قياسياً، وفوضويهم مرتباً، ومستبدهم مستشيراً، ومتهورهم حذراً، وتنشأ من مجموعة العلاقات التبادلية بينهم «معادلة» تتوازن بها كتلتنا الدعوية الممارسة في الميدان العملي لقضايا الدعوة، ويحصل بها أمان من الانحراف أو الفتنة أو المساومة على أصول الدعوة وثوابتها، ولو بقى شاذ لا يلين للمجموع ولا ينسجم مع الأداء فإن شذوذه وشذوذ أمثاله قد يؤثر في صفاء الصورة، ولكنه لا يضر ولا ينخر، لغلبة العزائم وتجانس الأكثرين، وكلما حرصنا على هذه المنهجية في التطوير وكررناها كانت الصورة العامة أنقى وأشد بياضاً.

إذن ففي التطوير ومنهجية التربية الريادية الحل، ولكننا أهل إيمان، وعلى ذلك يجب أن لا نجرد كلامنا التطويري الفكري السياسي تجريداً، فإن ذلك يزيد أهل السلب سلباً، ويزيد من قسوة القلوب، وإذا قست القلوب ظهر التناول والتحاسد واقتربنا من الفتنة، ومن هنا تجب المواعظ وأحاديث الإيثار والدرجات والموت والقبر والجنة والنار، في توازن بين الترغيب والترهيب والرجاء والخوف، هو ضروري لظهور توازن آخر بين الأداء السياسي والتعبد الإيماني، هو بدوره ضروري لظهور «المعادلة» العملية في الممارسة الدعوية الجماعية، وكل ذلك يلزمه بالتالي وجود قائد «شمولى» - له من كل خير نصيب؛ فهو في الإيمان قدوة، وفي السياسة خبير، وفي الفكر أستاذ، وفي الفقه مجتهد، وفي الأخلاق سمح حلیم جواد كريم - ليقوم بدوره الريادي في حشد القلوب وتحريكها كمثله دوره في إنهاء العقول وإذكائها، وهذا ما يجعلنا في النهاية نعود إلى بدء، وإلى تلقين، وإلى تلاوة، وإلى مكوث يومي في زاوية ذات بركة، تحت طاق واطع، في مسجد عتيق، يكون منها الانطلاق إلى الصالونات السياسية، والحفلات الانتخابية الجماهيرية، وإليها نؤوب. بل النظر الفاحص يدلنا على أن قلة الوعى هي المشكلة الصغرى في الذين ندفعهم إلى العمل العام والمحيط السياسي، وأن ضمور الروح وجفاف القلب هو مشكلتهم الكبرى التي تهيب بنا أن نؤسس أمرنا على تربية روحية مكثفة.

لكننا طالما قلنا إن من أخطر الأخطار أن نجعل قيادتنا فردية، تعتمد على أداء رجل منا موهوب على الصفات إن مات أو قتل ففترت الهمم من بعده، وإنما نحرص على تكوين «الطبقة القيادية العريضة»، بعدد واسع، يؤدون الدور القيادي كلهم، كمجموعة متكاملة، يكمل بعضهم بعضاً في الصفات، ويعين بعضهم بعضاً في الواجبات، والنجاح في تكوين هذه الطبقة هو النجاح، وهو القرينة على استمرار التقدم نحو الهدف، وعلى الوراثة الآمنة، وعلى تصدير الوعي لمن يحتاجه من المسلمين.

وهكذا تمتزج الأهداف والحقائق والوسائل، وتتداخل وتداخلها يمنعك أن تكون متعلقاً بسبب واحد، ناسجاً على منوال واحد، صابغاً بلون واحد، بل تطويرنا متشعب، وشعبه متشابكة، والتأثيرات متبادلة، وما أنت بالذي يستطيع الاقتصار، وما ينبغي لك، ومذاهب الأحادية عليه كلها، وفي الشمول غنى وكفالة.

لكن أياً كان هذا الشعب فإنه يجب أن يظل دائراً حول نقطة مركزية واحدة هي أساس المذهب القيادي الإسلامي، نسميها «العاطفة»، وهي كتلة من الأحاسيس الرقيقة، والمشاعر اللاهبة، ومعاني الإيمان، والرنو نحو الأخرويات، وتسكين الأفئدة بالطمأنينة كلما وجد القلق ثغرة للتسرب، فإن القائد المسلم ليس مدير شركة، ولا عميد جيش، ولكنه حادى قلوب، ونحن نخاف اليوم من هجمة الكمبيوتر والتقنيات الحديثة أن تحرف الأداء وتجفف منابع العاطفيات حتى تكون العلاقات ميكانيكية وتطغى العقلية والأرقام طغياناً عارماً، يخل بالموازنة ويقطع أوتار الروح، وليس هناك علامات تحذرك إذا نزلت فقاربت الخطر، لكنه الانتباه الدائم ولولوج أبواب المساجد، وفتح المصاحف، والوقوف بين قبرين... ليس إلا.